الوطنيـــــة

فى شعر حافظ

١

لا نكاد نمضى فى القرن التاسع عشر حتى نجد مصر تشعر بنفسها شعورا قويا، فهى تعِدّ جيشها، وتمد ذراعها تريد أن تستولى على الشام وبلاد العرب، وهى ترسل بعوثها إلى أوربا تريد أن تمتلك لنفسها بعض ما هناك من ثروات عقلية وعلمية.

ثم يدور بها الزمن، ويكون عصر إسماعيل، وتكثر ديونه، وتسوء مالية الدولة، ويرى ذلك المصريون، فيودون لو غَيَّرُوه أو لو غيَّرَ الله ما بنفس إسماعيل؛ ولكنه يمضى فى سياسته الطائشة مع بطانته التى كانت تمد له فى أسباب هذه السياسة.

وثارت مصر بقيادة عرابى لأول عهد ابنه توفيق، تريد أن ترمّ الثغور قبل أن تتسع، وأن يصبح السلطان لها ولأبنائها. واستعان توفيق فى إخماد هذه الجذوة الوطنية لشعبه وإطفائها بيد الأجنبى، بل بسيوفه ومدافعه، فكان الاحتلال الإنكليزى المشئوم.

وداست أقـــدامُ الانكليز ثرَى الوطن، ووطئت أمجاده التاريخية، واستهانت بكل مقدساته، واستراح الحاكم الظالم المحتل، لأنه مكّن له فى ظلمه، ولم تسعف الشعب ظروفه، فطال أمد الاحتلال واندس فى كيان الحكم كله.

والأمة المصرية تئنّ مثقلة به، وتشكو شكوى تجرى فى عروقها ودمائها، فهى تذكر تاريخها القديم، بل تذكر تاريخها فى مفتتح القرن التاسع عشر حين كانت خيولها تصهَلُ فى مكة والمدينة وفى الشام ومشارف الأناضول.

ثم تذكر ما انتهت إليه من هذا الانهيار ، أو قل من هذا الاحتلال الذى أحال حياتها ظلمات من اليأس والهوان .

وفى هذه الظلمات شبّ حافظ إبراهيم لأسرة متوسطة أو دون المتوسطة ، وتآزرت عوامل مختلفة ، لتجعله يشعر بآلام شعبه ، إذ توفى أبوه وهو لا يزال فى الرابعة من عمره ، فكفله خاله ، وأرسل به إلى الكُتّاب ، ثم إلى المدرسة ، ولم يُظهر التلميذ نبوغا ، فضاق به خاله الذى انتقل إلى طنطا مهندسا للتنظيم . وعمل حافظ هناك فى خدمة بعض المحامين ، فكان يكتب لهم ، ثم التحق بالمدرسة الحربية وتخرج فيها سنة ١٨٩١ م ، واشتغل ملازما فى وزارة الحربية ، و نقل إلى وزارة الداخلية ، ثم رجع إلى الحربية ، وضم إلى الحملة الأخيرة على السودان ، وكانت بقيادة اللورد كتشنر . ولم تعجبه الحياة هناك ، فاشترك فى ثورة مع بعض الضباط ، وحوكم وأحيل إلى الاستيداع . ولم يلبث أن طلب إحالته إلى المعاش وهو فى نحو الثلاثين من عمره ، فأجيب إلى طلبه .

وعلى هذا النحو لم يكن حافظ سعيدا فى مولده ولا فى تلمذته ولا فى وظيفته ، بل كان شقيا فى ذلك كله . فالتأم فى نفسه شقاؤه بشقاء أمته . وقد رأى من أثر الاحتلال فى خروجه من وظيفته ما وضح له أثره فى أمته ، فهو طريد كتشنر من الجيش ، وأمته طريدة الإنكليز من حقوقها الوطنية وحقائقها الإنسانية .

وكان ، وهو فى السودان ، قد راسل الشيخ محمد عبده شعرا ونثرا ، فلما اعتزل الحكومة التحق بدروسه ومجالسه ، وأخذ يتعرف عن طريقه على الطبقة الممتازة من المصريين ، أمثال سعد زغلول ومصطفى كامل وقاسم أمين وحسن عاصم ومحمود سليمان . وكانت بمصر فى ذلك الوقت ثلاث طبقات : طبقة الترك الأرستقراطية ، ثم هذه الطبقة الممتازة من المصريين ، ثم طبقة الشعب . وكان حافظ يختلط بالطبقة الأخيرة بحكم فقره وبؤسه وخروجه

منها ، كما كان يختلط بطبقة المصريين الممتازة ، وهى تلك الطبقة التى كانت تفكر فى وطنها وفى الخديو وسلطانه ، وفى الترك واستبدادهم وأرستقراطيتهم ، كما كانت تفكر فى المحتل الأجنبى وما يذوق المصريون من بطشه ، وامتصاصه لأموالهم ودمائهم ، واغتصابه لديارهم وحرياتهم .

ولم تتسع عند هذه الطبقة النزعة الوطنية فحسب ، تلك التى تجسمت فى مصطفى كامل وصحبه ، بل اتسعت أيضا نزعات إصلاحية مختلفة (١) ، فقد ذهبت طائفة تفكر فى الإصلاح الدينى ، على نحو ما هو معروف عن الشيخ محمد عبده ودعوته إلى التفكير الحرّ وفتح باب الاجتهاد فى مسائل الدين . وفكرت طائفة ثانية فى الإصلاح الاجتماعى على نحو ما هو معروف عن قاسم أمين فى دفاعه عن المرأة وحقوقها ، ودعوته الجريئة إلى السفور ونبذ الحجاب . وطائفة ثالثة فكرت فى الإصلاح الخلقى والإصلاح العلمى ، وقد دعا الشيخ على يوسف دعوة حارة إلى أن يكون التعليم فى مراحله المختلفة باللغة العربية ، وتأسست الجامعة المصرية القديمة بفضل قاسم أمين وسعد زغلول وزملائهما .

وكان حافظ يختلف إلى مجالس هذه الطبقة التى لم تَرِث امتيازها فى الحياة المصرية عن طريق آبائها من الترك ، بل استحدثته لنفسها عن طريق علمها وثقافتها وجِدّها وكفاحها ، ولا نبالغ إذا قلنا أن هذه الطبقة هى التى وضعت أصول نهضتنا الحديثة .

وكانت هذه الطبقة تفسح لحافظ فى مجالسها ، إذ وجدت عنده ما لم تكن تجده عند شوقى معاصره الذى لم يكن من الشعب ، بل كان من طبقة الترك ، وكان موظفاً فى القصر . أما حافظ فكان من الشعب وكان يشعر بكل ما يشعر به ، وكان يطمح إلى ما تطمح إليه طبقة المصريين الممتازة

---

(١) انظر : مذكرات فى السياسة المصرية لمحمد حسين هيكل ١/٢٧ وما بعدها .

من وجوه إصلاح . وكانت فيه فكاهة حلوة وميل إلى النادرة والدعابة ، وقدرة بديعة على رواية الشعر .

ولهذه الأسباب مجتمعة قَرُب من نفس الشيخ محمد عبده وصحبه الأخيار ، وأخذ يحوّل لهم بعض مايسمعه منهم من نقد سياسى أو اجتماعى أو خلقى أو دينى إلى شعر . فكان ينظم أبياتا تدور فى مجالس القوم ، يتناول بها هـذا الناظر (رئيس الوزارة) أو ذاك ، يصور فيها ما يجيش بأنفسهم ، ويضطرب فى قلوبهم ، ولايستطيعون أن يذيعوه .

ولم يكن حافظ يختلط بهذه الطبقة من المصريين فحسب ، بل كان يختلط أيضا بجماعات الشعب الدُّنيا اختلاطا لايقل عمقا عن اختلاطه بالطبقة الممتازة منه ، فهو يمضى سحابة يومه فى المقاهى بباب الخلق والسيدة زينب وحَىّ الأزهر وميدان إبراهيم ، عاكفا على «النرجيلة» ، مختلطا فى هذه المقاهى جميعا بالشعراء والأدباء البؤساء أمثال إمام العبد ، وإن ترك المقهى إلى منزله اختلط بالشعب فى طرقاته وفى الترام ، ورأى تحت عينه فقره وبؤسه . ثم ها هو نفسه شاعر ، ولا يستطيع أن يعيش فى وطنه عيشة كريمة !

وكان الشعراء من قبله ، فى العصور الوسطى ، يعيشون فى كَنَف الخلفاء والأمراء ، وكان يوجد دائما مَنْ يحميهم غوائل الدهر ، أما فى هذا العصر فقد تطورت الحياة ، ولم يعد الشعراء يجدون من يقدم لهم الجوائز السنية على شعرهم ، بل لم يعودوا يجدون من يسدُّ حاجاتهم الضرورية ، واضطر حافظ وأمثاله أن يهرعوا إلى بيوت الكبراء ، لعلهم يدعونهم إلى موائدهم ، أو لعلهم يأخذونهم معهم إلى بعض مزارعهم ، ليسلّوهم فى قطع أوقاتهم هناك ، وهم إن تكرموا عليهم ومَدّوا أيديهم إليهم لم يعطوهم شيئا ذا غناء .

ونتج من ذلك أن كان حافظ بائسا حقا ، وكان من طبقة الشعب البائسة فنظم كثيرا فى بؤسه وشقائه وحرمانه . وليس هذا ما يهمنا ، إنما يهمنا أنه

شعر بآلام شعبه ومتاعبه. وكم من بائس لم يعذّب ببؤسه ، لأنه لم يشعر به ، ولأنه يمضى فيه وكأن على بصره غشاوة ؛ أما حافظ فإن اختلاطه بالطبقة الممتازة من المصريين فتح عينيه على فاجعته لا فى نفسه وحده ، بل فى الشعب كله .

٢

ولعلنا نستطيع الآن أن نفهم كيف كان حافظ شاعر الوطنية المصرية ؛ فهو يمتزج بالطبقة الممتازة من الشعب التى تشعر شعورا عميقا بآلام الأمة ، وتريد أن تقيلها عثرتها ، وتنهض بها من كبوتها ، فى السياسة وغير السياسة ؛ وهو أيضاً يمتزج بالطبقة العامة من الشعب وتقع عينيه على معارض الشعور فيه كل يوم ، وهى معارض يراها فى شعبه التعس الرابض فى أحواض النيل وكأنه يربض فى الطين .

على أننا ينبغى أن نسارع فنقيد هذا الكلام بعض التقييد ؛ لأن حافظا لم يكن بركانا ثائراً ثورة عظمى على المحتل وما يذيقه بلاده من ألوان الخسف بل كانت ثورته هادئة ، إن صح أن تكون هناك ثورات هادئة ، أو قل إنها ثورة متقطعة ، فهو يثور من حين إلى حين ، ويضل سبيله فى ثورته كثيرا ، بل قل إنه ينسى ثورته ، حتى لنراه يمدح الإنكليز حين توج ملكهم إدوارد السابع سنة ١٩٠٢ ، وهو يغلو فى مديحه (١) ! وكأن ليس بيننا وبينهم ثارات وترات .

فحافظ شاعر الوطنية المصرية ، ولكن من الحق أن ينبوع هذه الوطنية لم يكن فياضا فى نفسه بالمقدار الذى اشتهر به فى عصرنا . ويكفى أنه ذهب إلى السودان ثم طُرد من الجيش ، ولا نجد له إزاء هذا الطرد مقطوعة واحدة يعبر فيها عن ثورته إزاء الظلم الذى وقع عليه ، كأنما هذا حادث عادى مر به

(١) انظر: ديوان حافظ طبع مطبعة دار الكتب المصرية ١/١٨

obeikandl.com

وكتب الكُتَّاب فى الصحف ، وامتلأت النوادى بالخطب والأحاديث فى هذه القسوة وتلك الغلاظة ، وانطلق حافظ ينشد قصيدته فى تلك الحادثة مستهلا لها بقوله :

أيُّها القائمون بالأمر فينا ... هل نَسيتم ولاءَنا والوِدادا
خَفِّضوا جيشكم وناموا هنيئا ... وابتغوا صَيْدَكم وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتْكمُ ذاتُ طَوْق ... بين تلك الرُّبا فصِيدوا العبادا
إنما نحن والحَمامُ سواءٌ ... لم تغادر أطواقنا الأجيادا

ثم يصف الواقعة ووحشية المحاكمة ، فيقول :

جاء جهَّالنا بأمرٍ وجئتم ... ضِعفَ ضعفيه قسوةً واشتدادا
أحسنوا القتل إن ضَنَنْتم بعفوٍ ... أقصاصا أردتمُ أم كِيادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو ... أنفوسا أصبتمُ أم جمادا
ليت شعرى أتلك « محكمة التَّفْتيش » عادت أم عهد « نيرون » عادا
كيف يحلو من القوى التشفِّى ... من ضعيفٍ أَلْقى إليه القيادا ؟
إنها مُشْكلةٌ تشفّ عن الغيظ ولسنا لغيظكم أنْدادا
لا تُكرِموتا بأرضنا حيث كنتم ... إنما يُكرم الجوادُ الجوادا

والقصيدة كلها تذهب هذا المذهب من التهكم والسخرية ، محاولا حافظ أن يصور ألم الشعب المصرى لهذا البغى والعدوان على أبنائه ، وكيف ينكِّل بهم المحتل فى ديارهم مغلظا فى نكاله . وما يزال يتحدث فى هذه المأساة مجسِّما بشاعةَ ما كان فيها من شنق وجلد ، ويقول فى قصيدة أخرى مخاطباً كِرومر :

جُلِدُوا ولو مَنَّيْتَهُم لتعلَّقوا ... بحبال مَنْ شُنِقوا ولم يتهيَّبوا
شُنِقوا ولو مُنِحوا الخيار لأهَّلوا ... بلظى سياطِ الجالدين ورحَّبوا
يتحاسدون على المنات وكأسُهُ ... بين الشفاه وطعمُه لا يَعْذُبُ
موتان : هذا عاجل متنمِّرٌ ... يرنو ، وهذا آجلٌ يترقَّب

طاحوا بأربعةٍ فأردوا خامسا هو خير ما يرجو العميدُ ويطلب
حبٌّ يحاول غَرْسَهُ فى أنفس يجُنَى بمغرسها الثناءُ الطيّب
فاجعلْ شعارَك رحمة ومودةً إن القلوب مع المودة تكسَبُ

ونعجب أن يذكر حافظ حب المصريين هنا ، وأن يستعطف كرومر على هذا النحو ، ولكن فى الحقيقة ليس هذا الموقف من كرومر وقومه موقفه هو ، وإنما كان موقف الطبقة الممتازة من المصريين حينئذ ، فهى تدارى الإنكليز ، تتقدم ولكن فى دقة وخوف واحتياط ، وكذلك كان حافظ فهو يثور على الإنكليز ، ولكنه لا يبالغ فى ثورته ، بل لا يزال يداور محتاطا لنفسه ، وجلا خائفا .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم مصانعته للعدو الغاصب ، فثورته عليه سرعان ما تخمد ، لأنها لا تعصف بقلبه ، ولا تجعله يضحى بحياته فى سبيل شعبه ، ومعنى ذلك أن ثورته لم تكن عنيفة ، ولا دافعة له إلى أن يتقدم للجلاد برأسه . وهى أيضا ثورة لم تنقل الشعب من واد إلى واد ، فنفسية حافظ لم تكن قوية ، ولم يكن هو نفسه بحيث يستطيع أن يحمل نفسية هذه الأمة التى سُلِبَتْ حريتها وكبلها الغاصب فى أغلال من الذل . ومن هنا لا تتفجر نفس حافظ بنبع ثائر لا يهدأ ، فنبع نفسه كان ضعيفا ، ومع ذلك فهو أعنف نبع نجده فى هذه الحقبة من تاريخنا ، أى أن عنفه نسبى ، فمن حوله من الشعراء كانوا فى الغالب جاثمين فى أصداف الذل ، وقلما صوروا أنين هذا الشعب وآلامه .

على أن الذنب ليس ذنب حافظ وحده ، بل هو ذنب الشعب وقادته ، ممن كانوا يلاينون الإنكليز . وإننا لنعتقد لو أن الشعب حاول أن يثور ثورة حقيقية ، وأن يرد بغى المعتدى فى نحره ، لوجد شاعرنا أمامه ، ولما تخلف عنه ، بل لبذل روحه مع الباذلين . ولطالما نعى حافظ عليه خموده وركوده ، ولقد حاول بكل ما يستطيع أن ينفخ فى شعوره إزاء مأساة دنشواى ، وأن يذكى

لهيب الوطنية فيه ، واسمعه يقول فى وداع اللورد كرومر حين استجابت إنكلترا لمشاعر المصريين ونقلته :

قتيلُ الشمس أورثنا حياةً ... وأيقظ هاجعَ القوم الرقودِ
فليت (كرومرا) قد دام فينا ... يطوّق بالسلاسل كلَّ جيد
ويتحفُ مصر آناً بعد آن ... بمجلود ومقتول شهيد
لننزعَ هذه الأكفانَ عنا ... ونُبعثَ فى العوالم من جديد

فهو يتمنى ساخرا لو دام كرومر فى مصر حتى تتم للشعب يقظته ، وحتى ينفض غبار الاستعمار عن عينيه ، ويحيى حياة كريمة .

وحافظ فى هذه القصيدة كعادته يحاور الإنكليز ويداورهم ، ويحتاط معهم ويشفع السمّ بالعسل ، كأن يقول فى خطاب السير خورست عميد إنكلترا الجديد :

تداركْ أمةً بالشرق أمستْ ... على الأيام عاثرةَ الجدود
وأيّدْ مصر والسودان واغنم ... ثناء القوم من بيضٍ وسود

فهو يصطنع هذه المداورة قاصدا ، ونحن لانستطيع أن نقدره قدره الصحيح إلا إذا عرفنا أن بطش الاحتلال كان على أشده ، وأن الإنكليز كانوا يشهرون قانون المطبوعات على رقاب المصريين من زعماء الحزب الوطنى وغيرهم ، وكم أغلقوا من صحف ، وكم ملئوا السجون بالأحرار . واسمعه يقول فى قانون المطبوعات الذى صدر لعهد بطرس غالى ، فكمَّمَ الأفواه ، وصادر الصحف ، وكاد يقضى قضاء مبرما على الحريات :

إن البليّة أن تباع وتُشترى ... مصرٌ وما فيها وأن لا تنطقا
كانتْ تواسينا على آلامنا ... صحفٌ إذا نزل البلاءُ وأطبقا
فإذا دعوتُ الدمع فاستعصى بكتْ ... عنا أسًى حتى تغصّ وتشرقا
كانت لنا يوم الشدائد أسهما ... نَرمى بها وسوابقًا يوم اللقا
كانت صِماما للنفوس إذا غلتْ ... فيها الهموم وأوشكتْ أن تزهقا

كم نفَّسَتْ عن صدر حرٍّ واجد ... لولا الصِّمام من الأسى لتمزَّقا
مالى أنوح على الصحافة جازعاً ... ماذا أَلَمَّ بها ؟ وماذا أحدقا ؟
قَصُّوا حواشيها وظنوا أنهم ... أمنوا صواعقها فكانت أصعقا
وأتوا بحاذقهم يكيد لها بما ... يَثْنِي عزائمها فكانت أحذقا

ثم يتحول إلى شباب الوادى ، فيثير عواطفه ، ويحمّسه ، ويهيب به أن يشق طريقه لا إلى السخط على الأجنبى ، بل إلى الثورة :

أهلا بنابتة البلاد ومرحبا ... جدَّدتم العهد الذى قد أخلقا
لاتيأسوا أن تستردُّوا مجدكم ... فلربَّ مغلوبٍ هَوَى ثم ارتقى
مَدَّتْ له الآمالُ من أفلاكها ... خيط الرجاء إلى العلا فتسلَّقا
فتجشَّمُوا المجد كل عظيمةٍ ... إنى رأيتُ المجد صعب المُرْتَقى
من رام وَصْلَ الشمس حاك خيوطها
سببا إلى آماله وتعلَّقا
عارٌ على ابن النيل سَبَّاق الورى ... ـ مهما تقلب دهره ـ أن يُسْبَقا
فتدفَّقوا حُجَجاً وحوطوا نيلكم ... فلكم أفاض عليكمُ وتدفَّقا
حملوا علينا بالزمان وصَرْفه ... فتأنقوا فى سَلْبنا وتأنقا
هَزُّوا مغارَبها فهابتْ بأسهم ... يا ويلكم إن لم تهزُّوا المشرقا
فتعلموا فالعلمُ مفتاح العلا ... لم يُبْقِ بابا للسعادة مغلقا
ثم استمدوا منه كل قواكمُ ... إن القوىَ بكل أرض يُتَّقَى
وابنوا حوالىَ حوضكم من يَقْظَةٍ ... سوراً وخطُّوا من جذارَ خَنْدَقا
وزنوا الكلام وسدِّدوه فإنهم ... خبَّؤوا لكم فى كل حرفٍ مَزْلَقا
وامشوا على حذر فإن طريقكم ... وَعِر اطاف به الهلاكُ وحلقا
نصبوا لكم فيه الفخاخ وأرصدوا ... للسالكين بكل فَجٍّ مَوْبِقا
الموتُ فى غشيانه وطروقه ... والموت كل الموت أن لا يُطْرَقا

فتحيَّنوا فرَصَ الحياة كثيرةً وتعجَّلوها بالعزائم والرُّقى

فحافظ يريد أن يثور بقومه ، حتى ليطلب إليهم الموت ، وأن يغشوا ميادينه ، فالثورة عارمة فى نفسه ، ولكنه لا يلبث أن ينظر حوله فيجد دون ذلك أهوالا ، فيعود إلى المكر ، ويطلب إلى الشعب أن يأخذ حقوقه من الغاصب عن طريق الدهاء والحيلة . وهو يشير فى وضوح إلى وزن الكلام ، وإلى العزائم والرقى . وهذا ما كان يأخذ به نفسه ، وما كان صحفيو عصره وكبار قادته يأخذون به أنفسهم ، فهم يحذرون المستعمر وما له من حول وقوة ، وهم يتأتَّون له فى كلامهم ، وهولهم بالمرصاد يبغى أن يتزلقوا أو يَزِلّوا فى أحاديثهم .

وكل ما نريد من تصويرنا لهذا الجانب ، أن شاعرنا لم يكن فى مداورته للغاصب خَوَّارا جبانا ، إنما كان مجسِّدا لجهاد الأمة حينئذ ، وما كانت تعتمد عليه فى هذا الجهاد من حذر واحتياط ، ولم يتأخر عن الركب ، ولا تخلف عن القادة ، بل ظل معهم تحدوه الوطنية ، ويحدوه الحماس ، حتى إذا نكبت الأمة بموت زعيمها مصطفى كامل وقف معها يبكيه بكاء حارا ، وهو فى هذا البكاء إنما يصور بكاء الشعب الذى يشعر شعورا عميقا به وبآلامه يوم موت مجاهده الكبير . وهو من هذه الناحية شاعر شعبه حقا ، فقد نبت من تربته الذكية ، ولم تستعرفيه نار عاطفة إلا أضاءت فى شعره ، واسمعه يصور ألم هذا الشعب حين مات مصطفى فى ريعان شبابه ، وآماله منعقدة عليه :

تسعون ألفا حول نعشك خُشَّعٌ يمشون تحت لوائك السَّيَّار
خطّوا بأدمعهم على وجه الثَّرى للحزن أسطارا على أسطار
آنا يوالون الضجيجَ كأنهم رَكْبُ الحجيج بكعبة الزُّوَّار
وتخالهم آنا لفَرْط خشوعهم عند المصَلَّى يُنصِتون لقارئ
غلب الخشوعُ عليهمُ فدموعهم تجرى بلا كَلَحٍ ولا استنثار

قد كنتُ تحت دموعهم وزفيرهم ... ما بين سَيْلٍ دافقٍ وشَرار
أسعى فيأخذني اللهيبُ فأنثني ... فيصدّني متـــدفقُ التيّار
لو لم ألذْ بالنعش أو بظلاله ... لقضيتُ بين مراجلٍ وبحار

ولما دار العام دورته أنشد قصيدة فى ذكرى مصطفى الأولى لا تقل عن هذه القصيدة حماسة ووطنية ، وفيها يقول :

قد مرَّ عامٌ بنا والأمر يحزُبنا ... آنا وآونةً تنتابنـــا النّقمُ
وللسياسة فينا كلَّ آونةٍ ... لونٌ جديدٌ وعهد ليس يُحترَمُ
بينا نرى جمرَها تُخشى ملامسُه ... إذا به عند لمس المصطفى فحَمُ
ماذا يريدون ؟ لا قرَّت عيونهمُ ... إن الكنانة لا يُطوَى لها علمُ
كم أمةٍ رغبتْ فيها فما رسختْ ... لها على حَوْلها فى أرضها قدَمُ
ما كان ربّك رب البيت تاركَها ... وهى التى بجبالٍ منه تعتصمُ

وهذا إيمان بالغ بوطنه . وبمثل هذا الشعر أخذ حافظ مكانة رفيعة بين قومه ، إذ وقّعَ لهم على قيثارته أشجـــانهم ، وكان لا يزال كلما ألم بهم حادث يفزع إلى قيثارته : يغنيهم همومهم وآلامهم .

٣

وما زال حافظ على هذه الطريقة يحمس أمته . ويوقد جذوة الوطنية والآمانى القومية فيها ، حتى وظّفه أحمد حشمت وزير المعارف رئيساً للقسم الأدبى بدار الكتب المصرية سنة ١٩١١ فانحبس البلبل فى قفص الوظيفة ، ولم يعد يترنم بشعره الوطنى إلا فى النادر . وكأنما كانت الوظيفة غلا لحافظ ، فأمسك عن الشعر أو كاد ، إلا فى المناسبات العادية .

ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن الوظيفة وما كفلته من رزق ألهته عن قومه ، فلم يعودوا يجدون فيه شاعرهم الوطنى . وقد لاحظنا أنه كان قبل توظفه

لا يزال يداور ذوى السلطان ويحاورهم ، حتى لا يمتحنوه ، وحتى لا ينزلوا به غضبهم وبطشهم .

فلما أصبح موظفا غلبه الخوف ، فكتم مشاعره إلا قليلا . وكأنما أقام على نفسه رقيبا . أو قل إنه أقام رقيبا من عقله على شعره ، فلم يَدَعْه ينفث فى العقد الوطنية القديمة . حذار ذوى البأس وأصحاب السلطان .

وارجع إلى شعره الذى نظمه فى اللورد كرومر فى أثناء حادثة دنشواى وبعدها ؛ ثم انظر فيما نظمه فى السير مكماهون معتمد بريطانيا سنة ١٩١٥ وكان الإنكليز قد أعلنوا الحماية على مصر ، فستجد الفرق واضحا بين اللونين من الشعر ، وستجده فى اللون الأول يتحدث باسم وطنه مع شىء من الكرامة والإيمان به . أما فى اللون الثانى فهو مُستَخزٍ خزيا شديدا ؛ واسمعه يقول :

أىْ مَكْـمَهُونُ ! قدمتَ بالـ ـقصد الحميـــد وبالرعايهْ
أوْضِحْ لمصر الفرقَ ما بين السيادة والحِمـايَه
ودَعِ الوعودَ فإنهـا فيما مضى كانتْ روايه
أضحتْ ربوعُ النيل سَلْـــطنةً وقد كانت ولايه
فتعهَّدوها بالصَّلا حِ وأحْسنوا فيها الوِصايَهْ
أنتم أطبَّاءُ الشعو ب وأنبلُ الأقوام غايَهْ
أنَّى حَلَلْتُمْ فى البلا دِ لكم من الإصلاح آيَهْ
رَسَخَتْ بنايةُ مجدِكُمْ فوق الرويَّة والهدايَه
وعدلتمُ فملكتمُ الـــدُّنيا وفى العدل الكفايه
إن تنصروا المستضعَفـــين فنحن أضعفهم نِكايَهْ
أو تعملوا لصلاحنا فتداركوه إلى النهايه

وهذا شعر ليس فيه روح ، وإنما فيه الخوف ، أوفيه الموظف الخائف

الذى يخشى إن دعا لشىء من الثورة أو هيّج الخواطر أن يُفْصَل ، وأن يحال بينه وبين وظيفته وماترفده به من رزق .

فهو الآن له راتب معلوم ، وهو يحافظ على هذا الراتب ، ولعن الله المادة والحاجة ، فإنها هى التى أقْعَدت شاعرنا عن قومه ، فلم يستطع الثبات معهم ولا المضى فى مقاومة العدو الغاصب ومن يعاونونه من المصريين .

ورسفت الأمة فى أغلال الحماية ، وانزوى حافظ طوالها ، فهو لا يستطيع أن يرفع صوته ولا أن يصرخ فى وجه المعتدى إلا أن يستغنى عن راتبه ، وهو لا يستطيع أن يستغنى عنه ، بل ما يزال ينتظره فى أول كل شهر لما كان يرزح تحته قبلا من ضيق وإقلال .

وتضع الحرب أوزارها وتقوم الثورة الوطنية سنة ١٩١٩ . ويكون طغيان المستعمر ، وتقوم المظاهرات ، وتنبعث النار الخامدة فى البركان المنطفىء ، فيهب الرجال والشباب ، وتنظم السيدات مظاهرات تحتك بالمحتل وجنوده ، ويرى ذلك حافظ ، فتثور نفسه ، ويقول :

خَرَجَ الغوانى يَحْتَجِجْ ... نَ وَرُحْتُ أرقب جَمْعَهُنَّهْ
فإذا بهن تَخِذْنَ من ... سود الثياب شعارَهُنَّهْ
فطلعنَ مثل كواكبٍ ... يَسْطَعْنَ فى وسط الدجنهْ
وأخذن يجتزن الطريـ ... ـقَ ودارُ سعد قصدُهُنّهْ
يمشين فى كنف الوقا ... رِ وقد أَبَنّ شُعورهنّهْ
وإذا بجيشٍ مقبـ ... ـلٍ والخيلُ مطلقةُ الأعنّهْ
وإذا الجنودُ سيوفها ... قد صُوّبتْ لنحورهنّهْ
وإذا المدافعُ والبنا ... دقُ والصوارمُ والأسنّهْ
والخيلُ والفرسانُ قد ... ضربت نطاقاً حولهنّهْ
والوردُ والريحانُ فى ... ذاك النهار سلاحهنّهْ

فتطاحن الجيشان ساعاتٍ تشيب لها الأجنّهْ
فتضعضعَ النسوان والذّ سوانُ ليس لهن مَنّهْ
ثم انهزمنَ مشتّتا ت الشّمْلِ نحو قصورهنّهْ
فلهْنأ الجيشُ الفخو رُ بنصره وبكسْرهنّهْ
فكأنما الألمانُ قد لبسوا البراقع بينهُنّهْ
وأتوا « بهنْدِنْبُرْجَ » مخ تفياً بمصر يقودهنّهْ
فلذاك خافوا بأسهنّ وأشفقوا من كيْدهنّهْ

وهى قصيدة محمّسة ، فيها تهكم وسخرية ، وفيها ما يثير الشباب ، ويلهب ثورتهم ، ولذلك وزعوها فى منشوراتهم الوطنية التى كانوا يطبعونها ويذيعونها حينئذ ، ولكن لا تظن أن شاعرنا هو الذى أذاعها ، فإنه كتبها ولم ينسبها إلى نفسه ، ولم يُذعها باسمه إلا فى سنة ١٩٢٩ .

ولعل فى هذا ما يدل من بعض الوجوه على مانقوله من أنه كان لا يزال وهو فى وظيفته خائفا يترقب . وكان هذا الخوف ومايرقب به نفسه ، يحدّان من لسانه ، ويفتان فى عضد شجاعته .

وما لبث أن رأى الإنكليز يحنون رءوسهم أمام الثوار المصريين ، وعلى رأسهم سعد زغلول ، فرُدّت إليه شجاعته ، وأخذ يستعيد عاطفته القديمة نحو بلاده ، وعاد إلى صوابه ، فاندلعت النار الوطنية فى فؤاده .

وهكذا هزّت ثورتنا الوطنية نفسه ، وانفلتت أصابعه تتحسس أوتار القيثارة التى كان يوقّع عليها شعره الحماسى فى السنوات العشر الأولى من هذا القرن . وكان يرى زميله شوقى يتغنى بتاريخ مصر ، وما سطّره أبناؤها على صفحة الزمن من مفاخر عَنَتْ لها وجوه البشرية .

فامتلأت روح حافظ بحب وطنه ، وشعر بمكانته التاريخية ، وتحقق لديه أن أبناءه سيفكون عن أعناقه أفعى الاستعمار ، وأنه سينال حريته بعد المناورة .

والمداورة بل بعد هذه الدماء التى سالت فى ثورته والتى كتبت بحروف من نور حقوقه ؛ وأعلنتها فى وجه الغاصب المستبد .

على أنه وقف مدة طويلة موقف حذر واحتياط ، فلم تلعب أصابعه على القيثارة توّا ، بل لعلها قد جمدت أول الأمر ، فإننا لا نجد فى شعره مايصور الحركة الوطنية حينئذ ، فلا تأليف الوفد المصرى سنة ١٩١٨ ولا منعُ الوفد من السفر الى مؤتمر الصلح ولا نفىٌ من نفاهم الإنكليز الى مالطة ، ولا مشروع ملنر ولا الخلاف بين أعضاء الوفد ، لا شىء من ذلك كله يرتسم فى صفحات شعره . ومضى حتى يخفق عدلى رئيس الوزارة المصرية فى مفاوضته مع كيرزن Curzon وزير الخارجية البريطانية ، ويقام حفلٌ له بعد استقالته من الوزارة ، فنرى حافظا ينشد فيه قصيدته التى طارت على كل لسان ، والتى يتغنى فيها بوطنه ، حفيا به وبأمجاده ، واسمعه يقول على لسانه :

وقف الخلقُ ينظرون جميعا ... كيف أبنى قواعدَ المجد وحدى
وبناةُ الأهرام فى سالف الدهـ ... ـر كفونى الكلام عند التحدّى
أنا تاجُ العلاءِ فى مفرق الشَّر ... قِ ودُرَّاتُه فرائدُ عِقدى
أىُّ شىء فى الغرب قد بهرَ النا ... سَ جمالا ولم يكن منه عندى
فتُراثى تِبرٌ ونهرى فُراتٌ ... وسمائى مصقولةٌ كالفِرِنْد
ورجالى لو أنصفوهم لسادوا ... من كهول ملءِ العيونِ ومُرْد
إنهم كالظُّبا أَلحّ عليها ... صَدأُ الدهر من ثَوَاءٍ وغِمْد
فإذا صيقلُ القضاء جلاها ... كنَّ كالموت ما له من مَردّ
أنا إن قدَّر الإلهُ مماتى ... لاترى الشرقَ يرفعُ الرأسَ بعدى
ما رمانى رامٍ وراح سليما ... من قديمٍ عنايةُ اللهِ جُنْدى
كم بغتْ دولةٌ علىَّ وجارتْ ... ثم زالتْ وتلك عُقبى التعدّى
إننى حُرَّةٌ كسرتُ قيودى ... رغم رقْبَى العِداوقطَّعتُ قِدّى

واستمرَّ يفخر بمصر القديمة ومآثرها المسطَّرة فى كتاب التاريخ ، واصفا ما كان بها من علم وحكمة وتشريع ، وكيف لقَّنت غيرها من الأمم ، فكانت معلّمة لروما وأثينا . وظل يفخر ببلاده ، مستطردًا إلى تحذير قومه من الغرب وأساليبه الاستعمارية ، وداعيا إلى الوحدة وعدم الفرقة ، حتى يقول :

إننا عند فجرِ ليلٍ طويلٍ ... قد قطعناهُ بين سُهدٍ ووَجْدِ
غمرتْنا سودُ الأهاويل فيه ... والأمانىّ بين جَزْرٍ ومَدِّ
وتجلَّى ضياؤه بعد لأْىٍ ... وهو رمزٌ لعهدىَ المُستَرَدِّ
فاستبينوا قصدَ السبيل وجِدوا ... فالمعالى مخطوبةٌ للجِدِّ

وجدَّتْ مصر حتى نالت تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، الذى أعلن انتهاء الحماية البريطانية عليها ، واعترف بها دولة مستقلة ذات سيادة . ولم يُرْض هذا التصريح سعدا ، وعارضه من ورائه المصريون ، وبدا الانشقاق واضحاً فى صفوف الأمة ، فهبَّ حافظ يقول :

أصبحت لا أدرى على خِبْرَةٍ ... أجدَّتِ الأيامُ أم تمزَحُ
أموقِفٌ للجِدِّ نجتازُهُ ... أم ذاكَ للاّهى بنا مَسْرَحُ ؟
ألمحُ لاستقلالنا لَمْحَةً ... فى حالك الشكِّ فأستَرْوِحُ
وتَطْمِسُ الظلمةُ آثارَها ... فأنثنى أنكر ما ألْمَحُ
قد حارت الأفهامُ فى أمرهم ... إن لمحّوا بالقصد أو صرَّحوا
فقائلٌ لا تعجلوا إنكم ... مكانكم بالأمس لم تبرحوا
وقائلٌ أسرف فى قوله : ... هذا هو استقلالكم فافْرَحوا
إن تسألوا العقل يقُلْ عاهِدوا ... واستوثقوا فى عهدكم تربَحُوا
أو تسألوا القلبَ يقل حاذروا ... وصابروا أعداءكم تفلحوا
إنى أرى قيْدا فلا تُسلِموا ... أيديكم فالقيدُ لا يُستجَحُ
إن هيئوه من حريرٍ لكم ... فهو على ليِنٍ به أفدَحُ

والرأيُ كلُّ الرأيِ أن تجتمعُوا فإنما إجماعكم أرجحُ

وحافظ يبدو فى هذه القصيدة مترددا ، فهو لا يقف جهارا مع سعد زغلول ، بل يداور ويستعين بالمكر والحيلة فى القول ، وما يزال يروى الآراء المختلفة ويقصّ وجوه الرأى ، كأنه لا يريد أن يتحمل مسؤلية ما يقوله ، بل ما يزال يتأتى له حتى لا يؤاخذ به ولا يحاسب عليه ، ولا تضيع منه وظيفته ولا راتبه ، ويدور العام ، ويحتفل بعيد الاستقلال ، وينهض حافظ فيقول :

اليوم قِرِّى يا كنانةُ واهدئى حَرَمُ الكنانةِ لم يكن بمباحِ

من ذا يُغير على الأسود بِغابها أو من يعومُ بمَسْبحِ التمساح

ويذكر ما تهيأ لمصر من أسباب البرلمان ، ويدعو إلى الاتحاد ، وأن لا يتخاذل المصريون بعد ذلك . ويتجه إلى الشباب ، فيهنئه بحريته التى رُدَّت إليه ، ويدعوه أن يدفع ثمنها من كفاحه وجهاده وركوب الصعاب ، حتى تنال أمته ما ينبغى لها من مكانة مرموقة بين الأمم ، وتصبح منيعة عزيزة الجانب .

ولا نكاد نجد لحافظ بعد هذه القصيدة شعرا يحمس به الشباب ، أو يدفعه إلى الثورة أو إلى الانضمام إلى حزب دون حزب . ونحن نعرف أن مصر انقسمت إلى حزبين كبيرين : حزب الوفديين برياسة سعد زغلول ، وحزب الأحرار الدستوريين برياسة عدلى يكن . ويظهر أنه رأى لنفسه أن يقف على الحياد ، حتى لا يصطدم بشعره حزب دون آخر ، فيخسر أصدقاءه من هذا الحزب أو ذاك .

وأكبر الظن أن حاجته إلى راتبه هى التى أمسكت بلسانه ، واضطرته إلى أن يكون وسطا ، لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء ، وكأنه رضى بما نالت بلاده من تصريح ٢٨ فبراير كما رضى لنفسه براتبه الذى كان يتقاضاه فى دار الكتب ، فلم تستبد به ثورتنا الوطنية الا قليلا ، ولم يتحدث فى السياسة إلا لكى يكسب رِضا جميع المواطنين وثناءهم ، وكأنما جَفَّ معين الثورة العارضة التى

كانت تضطرم فى صدره منذ عشرين عاما أو ثلاثين ، بما سلط عليها من إسار الوظيفة .

والحق أن الشعب نفسه وزعماءه هم الذين ألقوا سلاحهم أخيرا ، فلم يعودوا يناهضون الإنكليز ، وألهتهم الحياة البرلمانية وخلافاتها عن عدوهم المشترك ، وجرى معهم حافظ ، فألقى سلاحه ، ونبذ شعره إلا نادرا وفى المناسبات ، كأن يموت سعد أوغير سعد .

ونمضى إلى سنة ١٩٣٢ وهى سنة إحالته إلى المعاش ، فيحكم إسماعيل صدقى مصر حكما ظالما غاشما ، ينكّل فيه بزعمائها ، ويستعين عليهم برضا الإنكليز عن سياسته الجائرة ، مدعين أنهم يقفون على الحياد ، وهم فى الواقع الذين أقاموه حَرْبا على أمته ، وهَدًّا فى كيانها

وتعصف الثورة بقلب حافظ ، وخاصة حين يُخلَعُ عنه غلّ الوظيفة ، وتعنف العاصفة ، فيؤلف أبياتا ، وينشرها فى الصحف ساخرا من حياد الإنكليز ، هازئا باسم الشعب من أحابيلهم ، بل من جنودهم وأساطيلهم ، ومن قوله فى هذا الصدد :

حوّلوا النيلَ واحجبُوا الضوءَ عنا ... واطمسوا النجمَ واحرمونا النسيما
واملئوا البحر إن أردتم سفينا ... واملئوا الجوَّ إن أردتم رُجوما
وأقيموا للعسف فى كل شِبرٍ ... (كُنْسُتَبْلاً) بالسوط يَفْرِى الأديما
إننا لن نحول عن عهد مصر ... أو ترونا فى التربِ عظْما رميما
عاصفٌ صان ملككم وحماكمْ ... وكفاكم بالأمس خَطبا جسيما
غال (أرمادةَ) العدوِّ ففزتم ... وبلغتم فى الشرق شأوًا عظيما
فعدلتم هُنَيْهَةً وبغيتم ... وتركتم فى النيل عهدا ذميما
فشَهِدْنا ظلما يقال له العَدْ ... ل ووُدًّا يسقى الحميمَ الحميما
فاتقوا غضبة العواصف إنى ... قد رأيت المصير أمسى وَخيما

ونظم قصيدة تربو على مائة وخمسين بيتا ، يتحدث فيها عن حياد الإنكليز الكاذب وما يسخرون لأغراضهم من «صدقى» وحكمه الجائر ، وصور بطشه وخنقه للحريات، وما صبه على مواطنيه من البلاء ، وهو يستهلها بقوله :

قد مرَّ عامٌ يا سعادُ وعامُ وابنُ الكنانة فى حِماه يضامُ

وبسط أطماع الإنكليز ومراميهم من حكومة صدقى ، وانصب شواظ نار عليهم مهددا متوعدا، مؤمنا بأمته وزعمائها :

إنا جمعنا للجهاد صفوفنا سنموت أو نحيا ونحنُ كِرامُ

وفيها يقول لصدقى :

يا آلةً للقاسطين ودميةً فى قبضتيها النقضُ والإبرامُ
لاهمَّ أحْىِ ضميره ليذوقها غصصاً وتنسفَ نفسه الآلامُ

وكأنما رجعت إليه غضبته القديمة فى عنفوان شبابه ، فقد تحول بقلبه إلى وطنه ، وشاركه فى محنته ، وتجسمت خوالجه فى فؤاده ، فتناول قيثارة شعره ، وأوشك أن يزيد فى ألحانها أنغاما ، وفى أوتارها أوتارا ، غير أن القدر لم يمهله . وبذلك فقدت مصر صداحها الذى شدا بعواطفها الوطنية فى كثير من الحوادث التى ألمت بها منذ أوائل القرن ، إلى أن وافته منيته .